

دور اللغة في تشكيل شخصية الفرد والهوية الوطنية

الجوزي وهبة

أ. مساعدة في قسم علم الاجتماع

جامعة البليدة

ملخص:

إن إستعمال اللغة في المجتمع دعا إلى التواصل والتفاهم والإنسجام، بين أبناء الأمة الواحدة، وانصهارهم كليا في تجمع فكري واجتماعي موحد، ولاشك أن الثقافة المشتركة المنتشرة في أوساط الشعب تعد من أهم العوامل لبناء كيان وهوية الشعوب، وبقدر ما يكون هذا العامل راسخا ومتجددا ومسيطر على الحياة الاجتماعية والفكرية للأفراد، بقدر ما يكون هؤلاء الأفراد إمكانية الإندماج القومي راسخا وواقعا في المجتمع.

فاللغة هي المرآة الصادقة لذاكرة المجتمع والناقلة لها عبر الأجيال، لضمان التواصل والتماسك الاجتماعي والثقافي داخل المجتمع الواحد، وذلك عبر المؤسسات الفاعلة فيه عموما وبشكل خاص عبر المؤسسات التربوية. من هذا المنطلق يمكن طرح الإشكال المحوري لهذا البحث المتمثل في الكشف عن دور المدرسة في تفعيل العامل اللغوي لتحقيق التماسك الاجتماعي والفكري داخل المجتمع.

Résumé

Les liens unissant les membres d'un groupe, d'une société ou d'une nation ne peuvent être consolidés que s'ils utilisent le même moyen de communication :

L'union spirituelle et sociale entre les individus constitué l'objectif premier de la langue

C'est une problématique présentée dans le monde arabe en générale et dans la société algérienne en particulier : au sein

de laquelle les échanges langagiers ne sont pas uniforme en raison de présence du phénomène du bilinguisme.

Ainsi, cet exposé déterminerait l'importance de la langue dans l'enrichissement du patriotisme étant l'un des fondements de la culture nationale à partir des méthodes éducatives en cours dans les écoles , et qui puisent dans les gènes culturels et visent la production

D'une génération qui caractérise par sa fidélité pour son pays et qui porte en elle la culture de sa nation.



يمكن اعتبار موضوع "اللغة والتواصل" من المواضيع الهامة، الحساسة والراهنة في نفس الوقت، كما أنه موضوع متشعب الأطراف لا يمكن الاحاطة بجميع محاوره أبعاده، لذلك سوف أركز على اللغة كعنصر أساسي من عناصر بناء كيان الشخصية الوطنية وتماسكها وبقائها داخل المجتمع.

فاستعمال اللغة في مجتمع واحد، هو أدعى إلى التواصل والتفاهم والانسجام بين أبناء الأمة الواحدة. وانصهارهم كليا في تجمع فكري واجتماعي واحد. وهو ما نلاحظه منعما في غالبية المجتمعات العربية ومنها المجتمع الجزائري. حيث تنعدم الوحدة الفكرية في أوساط العاميين والمتقنين بسبب التباين الثقافي اللغوي بمعنى: اللغة العربية واللغة الفرنسية. وبالتالي تختلف وجهات نظرهم وأحكامهم على الأشياء لديهم في بعض الأحيان.

ولا شك أن الثقافة المشتركة المنتشرة في أوساط أبناء المجتمع هي من أكبر العوامل لبناء الكيان الوطني للشعب. وبقدر ما يكون هذا العامل راسخا ومتجذرا في نفوس الأفراد ومسيطرًا على الحياة الاجتماعية والفكرية لأبناء الشعب الواحد. بقدر ما يكون الشعب قد اندمج في ثقافة واحدة قوية وراسخة.

من هذا المنطلق كانت دلالة اللغة الواحدة أو اللغة المشتركة ذات بعد وطني وقومي، يضمن لأفراد الأمة الواحدة استمرارية تواصلها وتماسكها. وايضا، مما يدل على أهمية اللغة في حياة الشعوب وتكوين الامم، فاللغة هي مرآة صادقة تعكس التاريخ والبنية الاجتماعية للأفراد وتكوين الأمم. وأيضا هي روح الشعب وسمه من سمات البنية الثقافية المتناقلة

عبر الأجيال والمميزة للشخصية الوطنية⁽¹⁾. فاللغة هي الناقلة لذاكرة الأمة عبر المؤسسات التربوية، كالمدرسة وغيرها. وذلك يكمن فيما تقدمه سائر الدول ومنها الجزائر، من اهتمام باللغة في مناهجها التربوية لضمان التواصل والتماسك الثقافي والاجتماعي داخل المجتمع الواحد.

ومن هذا المنطلق أيضا يمكننا طرح الاشكال التالي: هل للمدرسة دور في تفعيل العامل اللغوي لتحقيق التماسك الاجتماعي في المجتمع الجزائري؟

إن هذا البحث يتكون من عنصرين أساسيين كما هو بارز في طرح الاشكال:

* **العنصر الاول:** اللغة كأداة للتواصل الاجتماعي،

* **العنصر الثاني:** دور اللغة في بناء الشخصية الوطنية للفرد داخل المدرسة و المجتمع.

- ماهية اللغة:

بالرغم من الصعوبات التي تواجه أي بحث علمي يختص بدراسة اللغة والتواصل للوصول إلى تحديد تعريف دقيق وشامل للغة. إلا أن تعريف اللغة يعد لبنة أساسية في تحليل الظاهرة اللغوية. وفيما يلي هناك عدة تعريفات تتحدث عن تعريف اللغة.

نجد ابن منظور في لسان العرب يقول: "أن اللغة تتبدل وتتغير وتتطور حسب تبدل الأقوام والأحوال وأن مصدر كلمة لغة هي اللغو"، وهو ما كان من الكلام غير المعقود عليه، وهو أيضا ما لا يعتد به لنقله من حال إلى حال. وقد ميز كذلك بين مفهوم اللغة، الكلام واللسان. كما عرّف أيضا ابن

منظور اللغة اصطلاحاً، فقال: "اللغة عبارة عن ظاهرة اجتماعية وهي أداة التفاهم والاتصال بين أفراد الأمة الواحدة، واللغة هي نمط من السلوك لدى الأفراد والجماعات، أما الكلام فهو سلوك فردي يتجلى عن طريق كل ما يصدر عن الفرد من أقوال ملفوظة أو مكتوبة". وباختصار فإن اللغة تشير إلى الجانب الاجتماعي، بينما الكلام يشير إلى الجانب الفردي سواء ما كان يصدر عن الفرد قولاً مفيداً أم غير مفيد.

وتمثل اللغة أحد الجوانب الاجتماعية والنفسية لدى الإنسان بما هي أساس للعلاقات الاجتماعية ووسيلة للتواصل بين الأفراد. فاللغة كائن حي نام ومتطور كما أنها ظاهرة معقدة ومتعددة الأبعاد. لذا اهتم علم النفس بدراسة السلوك اللغوي متمثلاً في طرق تكوين العادات اللفظية وأثرها على الشخصية ودور الفروق الفردية في اكتساب اللغة. والأسس النفسية لإكتساب المهارات اللغوية وعلاقة اللغة ببعض مكونات الشخصية، والآثار الحضارية والاجتماعية في تعلم وتعليم اللغة ومشكلات وعيوب النطق والكلام من منظور نفسي. ومشكلة تعلم لغتين في وقت واحد. وأثر كل ذلك وعلاقته بالشخصية⁽²⁾. هوما يعد محور وموضوع الدراسات النفسية.

وأحدث التعريفات التي تناولت اللغة وأكثرها عمقا وشمولا والتي تكشف بوضوح عن مختلف الاتجاهات الحديثة هو ذلك التعريف الذي قدمه لويس بلوم Bloom ومارجريت لاهي Lahey حيث عرفا اللغة بمثابة هي الشفرة التي يعبر بواسطتها عن الأفكار المتعلقة بالعالم من حولنا وذلك بواسطة نظام متعارف عليه من الرموز لتحقيق الاتصال⁽³⁾.

أما علماء التربية فقد عرفوا اللغة أنها أداة تعليم لعدد من المواد الدراسية أو لكل المواد وهي كمادة من مواد المنهاج الدراسي والناقلة

للأفكار والمحقة للغايات والأهداف التي تسعى المنظومة التربوية أن تجسدها في أرض الواقع⁽⁴⁾.

وقد أثّرت مسألة اللغة في الكثير من اللقاءات والملتقيات. فقد ورد في جريدة العروبة، وهي جريدة يومية تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر بدمشق - سوريا، أنه تم تنظيم الملتقى التربوي التاسع والعشرين والذي جعل من أهم فعالياته اللغة العربية. لأنها ترمز إلى هويتنا العربية وقيمنا وعمق حضارتنا. ودور الأنشطة المدرسية في تعزيز وتحقيق الأهداف التربوية في بناء شخصية جيل المستقبل الواعد.

2- اللغة كأداة للتواصل الاجتماعي:

إن اللغة هي الخاصية الجوهرية الأولى بالنسبة للإنسان، بإعتباره حيوانا ناطقا، المتكلم بدلالة العقل و دلالة الكلام. فكل شيء يكتسبه الفرد في المجتمع إنما يكون عن طريق اللغة. فلا يمكننا أن نتحدث عن التواصل دون الحديث عن اللغة. "فاللغة أداة تواصل انسانية بحثة"، كما جاء في قول إدوار سابير E.Sapir. فاللغة هي وسيلة للتعبير والتواصل⁽⁵⁾. واللغة أداة تفكير، فالكلمة تُخرج الفكرة من الغموض إلى الوضوح بالتعبير اللفظي عنها. فالفكرة لا تتحقق ولا تكون فكرة فعلية إلا حينما "تصب" في قالب لغوي. فلغة الكلام اليومية، هي لغة اجتماعية يكتسبها الانسان من محيطه عن طريق التربية. وتمتاز بكونها اصطلاحية واصطلاحية، على أساس أن لكل مجتمع لغة خاصة به. وهي تقوم بدور اجتماعي أساسي وجوهري. وهو تمكين الافراد من التواصل والتفاهم قصد تبادل الخدمات والتعاون...، إذن فاللغة ضرورية في التربية والعمل،

وفي كل مجالات الحياة، فلا تنبيه أو توجيه أو تشجيع أو توبيخ يمكن أن يحدث، دون هذه اللغة، "فالإنسان يد و نطق".

واللغة تعني اصطلاحا، كما جاء في قاموس علم الاجتماع للدكتور محمد عاطف غيث، أنها صورة السلوك الإنساني الشاملة التي تنطوي على الاتصال الرمزي من خلال نسق النماذج الصوتية المتفق عليها ثقافيا. والذي يحمل معاني مقننة.

كما تعتبر اللغة جزء من التراث الثقافي ومعبرة عنه في نفس الوقت، هذا وتتحول الأصوات التلقائية في اللغة إلى رموز ثقافية قادرة على توصيل الأفكار والرغبات والمعاني والخبرات والتقاليد من جيل إلى آخر، واللغة نتاج اجتماعي تمثل التجارب المتراكمة والراهنه، وكذلك العواطف والمعاني التي يمكن نقلها داخل ثقافة معينة. إضافة إلى أهميتها في الإدراك الاجتماعي، والتفكير ومعرفة الذات والآخرين وهي بذلك ضرورية للوجود الاجتماعي⁽⁶⁾.

فاللغة تحتل مركزا ممتازا في مناهج التعليم، في جميع المجتمعات، والجزائر أولت اهتماما كبيرا في مناهجها التربوية، للغة كأداة للتعلم وأداة للاتصال والتفاهم. ذلك ما نجده في قراءة الكتب وتطبيق المناهج تطبيقا صحيحا. بإشراك المتعلم في العملية التربوية لفظا وكتابة. من أجل ذلك، على المؤسسات التربوية أن تكثف من عنايتها بتدريب المتعلمين على التعبير الصحيح، معتمدة في ذلك بالعلوم اللغوية على اختلاف أنواعها. فباللغة يفسح المجال أمام المتعلم للتعبير عن أفكاره. وذلك بتنمية ملكاته، المتمثلة في قوة النطق والمقدرة على الكلام. هو ما يشجع المتعلم أكثر على توسيع دائرة اتصاله بالآخرين، والتعبير عن حاجاته ورغباته وأيضا

عن عواطفه. وبالتعبير الصحيح يتدرب التلميذ على التفكير الصحيح. فالتعبير والتفكير متلازمان لدى الفرد. هو ما على المدرسة أن تقوم به في تطور الفرد الفكري والاجتماعي. وهي تساعد على أن يندمج في المجتمع الكبير بثبات. على هذا الأساس فهي حلقة وسيطية بين الأسرة، كنظام اجتماعي عام في المجتمع، وبين المجتمع. وفي المدرسة يتحصل الفرد على التحصيل اللغوي والعلمي في مختلف مجالات العلوم. لتجعل منه عضوا صالحا وبناء في المجتمع. فالمدرسة كما يراها علماء الاجتماع تقوم بدور الموجه والمرشد. فهي أداة من أدوات التقدم الاجتماعي. وحلقة تواصل بين التراث الثقافي والابداعي للمجتمعات، وبين الأجيال الصاعدة. وتكون اللغة هي وسيلة رائدة في تفعيل ذلك التواصل من خلال وظائفها الثلاث التي تقوم بها، وهي:

الاستكمال والتصحيح والتنسيق. بمعنى: أن المدرسة تستكمل ما تقوم به الأسرة من تربية الطفل في تقويم لغته ومواهبه. وتصحيح التشوهات التربوية لدى الطفل التي تتركبها المؤسسات الأخرى. فهي، أي المدرسة، تقومُ العادات السلبية التي تعود عليها الطفل كاللفظ القبيح والسلوك السيء. كما تقوم المدرسة بدور التنسيق بين المؤسسات التربوية المختلفة لغاية تربية الطفل. فيتم التواصل الدائم بينها وبين المؤسسات، وتتعاون معها على تنشئة الجيل الجديد تنشئة بناءة وصالحة في خدمة المجتمع ورقبه. وعليه، في العملية التربوية تتم عملية نمو الشخصية وتكاملها، الذي ينتج من مرور الفرد بالتجارب المتعددة الأنواع. مع نمو هذا الفرد في وسط اجتماعي، يتفاعل ويتواصل مع الأفراد الآخرين، فيحدث لديه النمو المؤدي إلى تكامل شخصيته المميزة لنوع الثقافة والحضارة السائدة في المجتمع. فالمناهج الدراسية أداة لتكوين شخصية التلميذ. فغايتها تربية

الفرد وتهيئته لأن يكون قادرا على خدمة مجتمعه، في ثبات يرفع من شأنه ورقه بين دول العالم.

وما لاحظناه في السنوات الأخيرة أنه حدث تغييرا أساسيا في الدراسات اللسانية، إذ أخرجت اللغة نهائيا من مشكل الدراسات البنوية التركيبية التي عجزت عن الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية (البنوي الدلالي والتداولي). وعلى هذا يقول اللغوي الألماني "روك" في هذا الصدد: أن اللسانيات النصية بصفاتها العلم الذي يهتم ببنية النصوص اللغوية وكيفية جريانها في الاستعمال أخذت شيئا فشيئا مكانة هامة في النقاش العلمي في السنوات الأخيرة. والنص الحديث له منظور خاص يشمل كل أنواع النصوص المتداولة في المجتمع، المكتوبة وغير المكتوبة.

ونختصر الطريق في تقديم أهم توجهات اللسانيات النصية باعتمادنا على ما عرض في مقال نشر في العدد الثاني عشر من مجلة اللغة والدرب التي تصدرها جامعة الجزائر. حيث عرض فيها أهم القواعد المبدئية التي اقترحها اللغوي الفرنسي جان ميشال آدم، لإرساء أسس نظرية نصية متكاملة، مما نتصور، أن يكون في المستقبل علم اللغة التداولي.

واللغة ليست لغ إلا عند استعمالها استعمالا فعليا في الواقع كما أكدته توجيهات البحث المعاصرة. ففي الآونة الراهنة الكثير من الدراسات والأبحاث تحاول جمع اللغوي بالاجتماعي تتطوي تحت ما أصبح يسمى الآن بعلم الاجتماع اللغوي (Sociolinguistique).

والواقع أن اللغة هي ظاهرة اجتماعية تعكس كل ما يجري في المجتمع الذي يوظفها. والمجتمعات الإنسانية بطبيعتها مبنية على التنوع وأساسها

الصراعات والتناقضات التي تتفاعل، فتجعل البنى الاجتماعية تعرف حركة وديناميكية مستمرة ومتواصلة. فاللغة ظاهرة اجتماعية تتفاعل مع كل الظواهر الاجتماعية الأخرى، ينطبع بهذا التنوع والاختلاف ويعكس بدوره الحركة الاجتماعية في تحولاتها وصراعاتها وتناقضاتها. وقد تكون اللغة هي المجال الذي تذوب فيه الصراعات والتناقضات التي تحدث على الساحة الاجتماعية.

3- دور اللغة في بناء الشخصية الوطنية للفرد داخل المدرسة والمجتمع:

الملاحظ أن هناك ارتباطا عضويا بين الثقافة و الشخصية، سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الاجتماعي. لأن الثقافة هي المعيار الاجتماعي للشخصية. ومن ذلك فإن أي حديث عن الشخصية، هو أيضا حديث عن العناصر الثقافية التي تحدد أبعاد هذه الشخصية وتوضح معالمها توضيحا دقيقا. فالشخصية في مفهومها اصطلاحا كما يرى ذلك "K.Lewin" في مؤلفه "A Dynamic theory of personality"، ان الشخصية هي صيغة منظمة نسبيا لنماذج السلوك والاتجاهات والمعتقدات والقيم النمطية المميزة لشخص معين و التي يعترف بها هو والآخرين، وتعتبر الشخصية محصلة الخبرات الفردية في بيئة ثقافية معينة ومن خلال تفاعل اجتماعي متميز، ولهذا نحدد بناء شخصية الفرد عن طريق ملاحظة نموذج سلوكه العام وطريقة تفكيره ومشاعره وأفعاله. على أن الشخصيات الفردية تعكس بناء مجتمع الشخص وثقافته والعمليات الكامنة في هذا البناء.

ويشير المصطلح أيضا أن الشخصية هي مجموعة العناصر البيئية في سلوك الفرد، وذلك دون الإشارة إلى عمليات سيكولوجية معينة مع الاهتمام بالهوية والكيان المستمر للفرد في مجرى النمو والتطور.

إن السلوك كما يراه "كورت ليفين Kurt Lewin" عبارة عن وظيفة لتفاعل الشخصية مع البيئة. غير أن الأفراد قد يسلكون بطريقة مختلفة تماما في بيئات متشابهة أو حتى في نفس البيئة. ويرجع هذا الاختلاف إلى اختلاف الخصائص الفطرية والموروثة، واختلاف طبيعة وتنظيم الاستجابات المكتسبة التي تشمل على طرق إدراك ثقافة البيئة أو الإحساس بها.

فدور الثقافة في المجتمع هو تكوين الشخصية الوطنية، فكيف يتم ذلك؟
للتقافة معنيان، المعنى اللغوي و المعنى الإصطلاحي.

أما معناها لغويا، فهي التهذيب والصقل، فالشخص المثقف هو الشخص المهذب والمصقول في أخلاقه وسلوكه العام. أو هو ما ينبغي أن يكون في أيامنا هذه.

أما اصطلاحا، فالثقافة هي ذلك النسيج الكلي المعقد من الأفكار والمعتقدات، والعادات والتقاليد وأساليب التفكير، والعمل، وأنماط السلوك وكل ما يُبنى من تجديدات في وسائل الحياة مما ينشأ عليه كل فرد من أفراد المجتمع.

وثقافة الامم تتسع لكل ما أنتجته عبقريتها خلال مراحل التاريخ التي مرت بها إلى الوقت الحاضر. فهي تتضمن عناصر معنوية، كاللغة والعلوم والآداب والنظم والفنون والقوانين والعادات والتقاليد والأخلاق

والدين، التي يشترك فيها افراد الأمة الواحدة، و التي تصنع بها هويتها وتميز انتماءها إلى الأمة الواحدة، و تتمايز بها عن سائر الأمم الأخرى.

فبالثقافة، تحافظ الأمة على بقائها واستمرارية كيانها. فكل مجتمع وسيلته الأساسية في المحافظة على نفسه ووجوده، هي ثقافته الوطنية الخاصة به. هو ما تلجأ بعض المجتمعات المهددة في ثقافتها الوطنية ولأجل الإبقاء على نفسها معنويا إلى الحروب، فتخوضها في بعض الأحيان دفاعا عن كيانها ووطنيتها. لذا تقوم المجتمعات، حماية كيانها وشخصيتها الوطنية، وتحمل مسؤولية ذلك إلى المدرسة بجعل دورها الأساسي هو المحافظة على الثقافة الوطنية. وذلك بتعليم التراث الثقافي لأجيال الأمة، بعد أن تجعل مقومات شخصية المجتمع والأمة، متضمنة في مضامين مناهجها التربوية في مختلف مراحل التعليم التي يمكن أن يمر عليها الطفل في المدرسة. لأن المدرسة هي الوحيدة القادرة على غرس، في نفوس الناشئة، حب هذا التراث الثقافي والتمسك به، والاعتزاز به. هو ما يحقق للجماعة الانسانية بقاءها وتواصلها عبر الأجيال وتمكاسكها. والمحافظة على شخصيتها المُمَيَّزة بها عن بقية المجتمعات الانسانية الأخرى.

ومن المعلوم أن التراث الثقافي لمجتمعنا يقوم على أساس علاقات أفراد الاجتماعية، وهو ديننا ولغتنا، وفلسفة تفكيرنا وأخلاقنا وآدابنا. فهي العناصر المحددة بقوة لذاتيتنا المميزة لنا بين الأمم فالحاضر هو حصيلة الماضي. فالبناء الثقافي لا يقوم في الفراغ، فلا بد له من أساس يرتكز عليه، وهو ما تؤكد مقولة ابن خلدون، غلبة اللغة العربية بغلبة أهلها ومنزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم.

فالمجتمع الجزائري له من التراث الثقافي ما يعتز به لغناه ولرفعة انتمائه الحضاري، إلى التراث الحضاري العربي الاسلامي. الذي نحن مرتبطين به فكرا وعقيدة وثقافة وتاريخا. هو ما يجعل التواصل الثقافي بين الأجيال لا يكون إلا بلغة ثقافة هذا المجتمع. والأداة الأساسية لتعلم هذا التراث، هي اللغة التي تبقي عليه وتحافظ عليه وبها يدافع عنه.

وقياسا لما سبق، إن اللغة تؤدي والتفكير والتعبير والتواصل، وما يرتبط بها من التدنوق والتعاطف والمشاركة في وظائف المواقف والأعمال. واللغة إذ تنمو مترابطة مع النمو العقلي في الأطفال تأتي في نسق و تتابع. كذلك هي وعاء ثقافة الأمة والسبيل إلى استيعاب ماضيها وأساليبها في النظر إلى الواقع وهوية المجتمع وثقافته.

والاتصال كنظرية يتبنى مدرسة فكرية تسعى إلى تفسير عمليات إرسال المعلومات واستعمالها بتوظيف اللغة اللفظية والحسية أو الرمزية أو الجسدية في نظام اجتماعي معين. والاتصال هو الوسيلة التي يستلم نظام اجتماعي من خلالها المعلومات و يقف عليها ثم يخرج منها بنتائج. إن هذا النظام يتلقى معلومات يحلها ويتفاعل معها. وتخلق التغييرات المستمرة المحيطة بهذا النظام الاجتماعي حاجات جديدة ترسل إلى هذا النظام وتبني حجم التحديات ومدى قدرته على تحملها. فعملية الاتصال هي الأداة الأساسية للتفاعل الاجتماعي.

إن المعنى الوطني، للغة هو ذلك التوافق بين اللغة وروح الشعب. إن هذه الروح الباطنية هي التي تخلق التطور و تربط الماضي بالمستقبل عبر الحاضر، تملك دلالات عديدة. الدلالة الحضارية ودلالة الانتماء الإقليمية والاختيار الإلهي. وهي أيضا اللغة، أحد تعبيرات روح المجتمع. فلا يوجد مجتمع أو أمة لا تملك لغة. إن اللغة هي العنصر الأساسي لمقومات

الشخصية الوطنية لأي مجتمع. إن اللغة هي التعبير الحقيقي عن الفكر الاجتماعي حيث أن الطابع الفكري لأفراد المجتمع، إنما يتجسد عبر الألفاظ والعبارات التي تتكون منها اللغة. فاللغة هي التي تسمح وتحافظ عن وحدة وتماسك أفراد المجتمع الواحد والأمة الواحدة. بل إن اللغة هي التي تفرض على الجماعة التماسك في واقع تميز بالتجزئة والتفتت فرضتها ظروف التدخل الاجنبي وحركية الاحتلال الذي فرض عليها الخضوع إلى سياسته الدخيلة والأجنبية بكل مبادئها السياسية والثقافية والوطنية. نتج عن هذه الوضعية هدر الكرامة والعزة الوطنية، فبهذا المعنى، تصير اللغة الوعاء الذي يحفظ ويحمي التراث الوطني للمجتمع.

والمؤكد من خلال ذلك، هو أن اللغة تسمح بالتواصل الاجتماعي كما تفرض التطابق بين اللغة وما تمثله من قيم و تطور وطني، وعندما يفقد أي مجتمع ذلك التطابق، فإن هذا يؤدي إلى تقلص العلاقة بين اللغة والضمير الوطني. وهو تمهيد لاختفاء اللغة من ذلك المنظور الجماعي⁽⁷⁾.

اللغة هي الوحيدة التي تسمح بالاحتفاظ بالتقاليد ونقلها من جيل إلى جيل. وفي هذه التقاليد يقول "هردز" بهذا الصدد: "اللغة هي تعبير عن تلقائية روح الشعب، إنها عصير الحياة للأمة، والضمير الوطني لا يمكن أن يتبلور إلا من خلال الأدب الذي تخلقه قريحة تلك الأمة". إن القرن الواحد والعشرين - قرن سياسة الجماهير وثقافة الجماهير - لا يمكن إلا أن يزيد من تأكيد هذه الحقيقة.

كذلك، فإن اللغة هي وحدها أداة للتعليم، بحيث يحتفظ النظام الثقافي ليس فقط باستمراريته بل - وبصفة أساسية - بالدلالة الحضارية التي يمثلها من حيث علاقته بالتراث الثقافي التاريخي. إن التاريخ الحقيقي

للإنسانية، هو سلسلة مترابطة من التقاليد ولا تستطيع سوى التغييرات اللغوية حماية هذه الاستمرارية. اللغة هي أداة الإدماج الحقيقية. اندماج الماضي بالحاضر، اندماج روح الشعب بالتطور السياسي. اندماج الفرد في المجتمع الذي إليه ينتمي. هذه هي الوظيفة السياسية للغة في معناها الحقيقي.

إن اللغة ليست مجرد رموز وألفاظ. إنها قبل كل شيء آخر بنيان يشرب من خلال اطار منطقي للتعامل مع الواقع الاجتماعي، أولاً، ونظام متكامل للقيم الفردية والجماعية والجمالية للمجتمع.

إن اللغة صورة وجود أمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه كما جاء في قول الراجعي⁽⁸⁾.

وحقيقة الأمر، ترجع دلالة اللغة الوطنية، كما لأي أحد من أفراد هذه الأمة، بتردد عن الاقرار بها، هو كون اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم والسنة. ومن هنا، إكتسبت اللغة دلالاتها القدسية في نفوس المسلمين جميعاً ومنهم الجزائريين. كما يراها العديد من المفكرين العرب والمستشرقين أنها جزء لا يتجزأ من حقيقة الاسلام⁽⁹⁾.

واللغة العربية كما يشهد لها اللغويون بمقياسهم، أنها من اللغات الراقية بما تمثله من ثراء في المفردات وصيغ التعبير والجمال، وقدرة الاشتقاق.

واللغة العربية هي لغة تواصل واحدة بين كل أفراد المجتمع لما تحمله من دلالة قومية وعقائدية موحدة. مما جعلها تجمع ما بين ثلاث عناصر أساسية دالة على الانتماء الوطني العربي والديني الاسلامي وهي: لغة تنزيل القرآن، ولسان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم صاحب الدعوة

Wondershare

والهداية برسالة الاسلام. وبها تم توحيد الامة العربية، التي تبلورت بها شخصية الأمة في ظل الاسلام قوميا.

وللغة دورا كبيرا في حياة الفرد وتفاعله مع الآخرين، فهي بذلك وسيلة اجتماعية وأداة للتفاهم بين الأفراد والجماعات. كما أن أكبر وسائل التواصل الجماهيرية المختلفة تعتمد على اللغة. لكونها ذات الأثر الأكبر في حياة المجتمع. وهي من وسائل الارتباط الروحي بين أفراد أي مجتمع. هو ما يفسر حرص الدول الاستعمارية على نشر لغاتها، لأنها تكتسب بهذا الغزو اللغوي ميولا وارتباطا يفسح لها المجال لنشر ثقافتها و مقومات حضارتها.

هو ما يلاحظ في تاريخ الجزائر المعاصر، ان الاحتلال الفرنسي أول ما ركز في سياسته الاستعمارية منذ بداية الاحتلال، على محو الشخصية الوطنية للشعب الجزائري في لغته العربية ومنه القضاء على التراث الثقافي والحضاري لهذا الشعب. حتى تشل بها حركية التواصل والبعث الوطني للشعب. فالجهاز التربوي في الجزائر في عهد الاستعمار أقامته فرنسا على أساس تشويه اللغة العربية، وبها تقضي على الثقافة العربية الاسلامية، حتى تجعل تكوين الأجيال الجزائرية الصاعدة، لهم تكوين مشوها وبالتالي تنشأ الأجيال الجديدة بلا أصالة ولا انتماء، لأن السبب يكمن في جهلهم للغة قومهم وأمتهم وتاريخ وطنهم وثقافة شعبهم.

هو ما يفسر مضايقة ومحاصرة الإدارة الاستعمارية للغة العربية من سائر الادارات الجزائرية ومعاهد التعليم على اختلاف أنواعها أثناء الاحتلال.

وعلى هذا الأساس، برز النضال الوطني في الجزائر، خاصة في مقاومة الاحتلال وأهدافه الثقافية المتمثلة في فرنسا الشعب الجزائري

واندماجه في الثقافة الفرنسية. حيث نجد أن أولى توصيات قادة لاحتلال للجيش الفرنسي الزاحف إلى غزو الجزائر عام 1830م، هي قولهم: "علموا لغتنا الفرنسية و أنشروها حتى تحكم الجزائر فإذا حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة".

وقياسا لذلك، نستخلص أهمية التعليم كقوة بحكم دوره في العملية الاجتماعية والتاريخية للفرد والجماعة، فهو قادر على تكوين الفرد قيميا، كما هو يؤثر في أنظمة المجتمع وحركة التواصل والتفاعل الاجتماعيين فيه.

فالحديث عن اللغة كظاهرة للتواصل لا ينفصل عن الحديث عن دالة الفكر العربي، لأن اللغة تمثل أداة استكشاف لجوهر الأمة. فمن خلال ألفاظها تعبر عن معنى الاحساس بالمواطنة والشعور بالتوافق بين أبناء الأمة الواحدة⁽¹⁰⁾.

واللغة عنصر من أقوى عناصر الوحدة والتضامن بين أبناء الأمة واستمرارية تواصل الأجيال فيها. فهي القادرة على تحويل الفرد إلى كائن اجتماعي يتحسس ويعيش الواقع. و يتشبع بالخصائص القيمية والاخلاقية المشكلة للآرث الثقافي للمجتمع الذي يعيش فيه و الأمة التي ينتمي إليها.

وفي عصرنا هذا، عصر التكتلات والتناقضات، علينا أن نهتم أكثر مما سبق، بالحفاظ على اللغة العربية و سلامتها. فالحفاظ عليها هو حفاظا على الأمة و وحدتها وضمانا لتواصل الأجيال الصاعدة ومستقبلها. وحماية لها من الأخطار الأجنبية، المستهدفة، تخريب وتدمير الكيان العربي الاسلامي أينما وحيثما وكيفما وجد لاعتبارات أقل ما نصفها أنها سياسية استراتيجية. لذا التمسك باللغة هو أول السبل إلى الوحدة والتماسك الاجتماعيين.

وإن كان حرصنا على اللغة كظاهرة للتواصل الإجتماعي بما يحمله من دلالة قيمية و أخلاقية، حرصا بالغ الأهمية. نظرا لما يهدد أمتنا العربية من غزو لغوي فاسحا المجال للغزو الثقافي المواكب للغزو الاقتصادي. التي تكمن عواقبه في التبعية السياسية، تنتهي، إن لم نقض عليها، بالتبعية العسكرية. هو ما يعكسه الواقع العربي حيث أصبحت مناطقه الإستراتيجية قواعد عسكرية للقوى العظمى في العالم.

لهذا يجب أن نكون في تحليلنا وتمحيصنا لواقع اللغة والثقافة العربية. وأعين بما وصلت إليه لغتنا من تخلف مقارنة باللغات والثقافات الأخرى. ويرجع ذلك إلى التهميش الذي تعاني منه اللغة العربية من قبل المثقف الجزائري بصفة خاصة والمثقف العربي بصفة عامة. والذي فرط في استثمار ما للغة الضاد من امكانيات لفظية وقدرة مجازية، وقوة جمالية في مجالات التعبير والاتصال. ما بين الأفراد داخل المجتمع. بات ذلك ضحية التواكل و التقليد والتبعية التي أضحت الانسان العربي يتصف بها.

والملاحظ أن العملية التربوية لا تنشط في فراع. فهي كما تتطلب معلما وتلميذا كعنصران أساسيان في تفعيل العمل التربوي، تتطلب إلى جانب ذلك، مادة علمية يعالجها المعلم مع التلاميذ. لذلك نتوقف عملية انجاح تكوين النشئ في المدرسة الجزائرية وفي المدارس العربية ككل، على مدى مضامين مناهجها التعليمية من مضمون إيجابي يهتم بتربية روح المتعلم وتجعله مواطنا واعيا وقادرا على الاسهام في خدمة مجتمعه وتطويره، وكذا حمايته من الاخطار الموجهة إليها. ذلك بما تقدمه المدرسة للتلميذ من قيم روحية نابغة من ثقافة المجتمع وانتمائه الوطني العربي

الاسلامي.

wondershare

هذا وقد شخصت الدراسات والأبحاث حول أهمية اللغة في تنمية الروح الوطنية كعنصر أساسي من عناصر الثقافة الوطنية، لكن تبقى قليلة مقارنة لما تبذله الدول الغربية في غرس قيمها الوطنية في المناهج التربوية المقررة على أبنائها في المدارس المستمدة من موروثها الثقافي و مقدساتها العقائدية هادفة إلى صناعة الأجيال أسمى ما يميزهم ولائهم لأوطانهم وقومياتهم.

هي الحقيقة التي أدركتها الدول المتقدمة وشعوبها، حيث تعمل جادة لجلب أبنائها لمعرفة ثقافتهم ومقومات هويتهم والاطلاع على ماضيهم، حتى تضمن بذلك التواصل الاجتماعي ما بين الأجيال وتحمي بذلك استمراريتها ووجودها، لأن الحديث عن التواصل الاجتماعي للأفراد هو الحديث على الاستمرارية والوجود وتحقيق الذات. الأمر الذي يجعل من المدرسة في عصرنا هذا تحتل مركزا استراتيجيا في المجتمع وان لها الأثر الأكبر في تطوره، واصلاح شأنه. فاصلاح مجتمع لا يمكن أن يكون ثابتا وموطد الأركان إلا إذا تم فيه توعية الناشئة وعيا أكيدا يسعون إلى تحقيقه.

فكل مجتمع يعمل على رسم خطة تقدمه وتطوره، بهندسة المناهج التعليمية المحتواة فيها الأهداف التي يعمل على تحقيقها من خلال المؤسسات التعليمية والتربوية المسؤولة على تحقيق تلك الأهداف. والتي بها يكون رجل المستقبل وفيها تتشكل أول لبنة لشخصيته.

إن المدرسة قد أصبحت في العصر الحديث، تحتل مركزا استراتيجيا رائدا في المجتمع. وان لها الأثر الكبير في تطوره واصلاح شأنه، فإصلاح مجتمع لا يمكن أن يكون ثابتا وموطد الأركان، إلا إذا تم توعية الناشئة توعية أكيدة ، وسعوا إلى تحقيقه. فكل مجتمع يعمل على رسم

خطة تقدمه وتطوره محددا الأهداف التي يود أن يحققها من خلال المؤسسات التعليمية المتكفلة بتحقيق تلك الأهداف فهناك علاقة وطيدة بين المدرسة والمجتمع وتحقيق التواصل الفكري والاجتماعي في كل زمان ومكان، ارتباطا وطيدا وتفاعلا شديدا وتوصلا مستمرا.

إن السياسة التربوية في الجزائر قد تبنت الديمقراطية المبنية على المساواة والعدالة منذ الاستقلال وإتاحة الفرص لكل طفل في الدراسة والتعلم. فهل أخذت هذه السياسة بعين الاعتبار وضعية الطفل اللغوية؟ وكيف ستكون عليه اللغة التي يتخرج بها التلميذ من المدرسة الجزائرية بعد تكملة مساره الدراسي؟ وهل بذلك هي محققة للأهداف الوطنية المرجوة منها في صناعة الرجل المحافظ والحامي للغة الحاملة لرموز ثقافته وحضارته؟؟ وهل تستطيع المدرسة أن تكون الرجل الذي باستطاعته مواجهة مختلف القيم الإنسانية المتضاربة والمتصارعة بقوة لم تعرفها الإنسانية من قبل. أو بالأحرى، هل تستطيع المنظومة التربوية الجزائرية المدعمة بلغة قوية مرنة ومطوعة أن تكون الإنسان المتجذر في واقعه التاريخي المجتمعي، وفي ذات الوقت يتطلع إلى تقبل القيم الإنسانية المختلفة بلا عقدة وبلا خوف على قيمه وعلى هويته. وقد قال غاندي في هذا المعنى: حين أكون في بيتي (الوسط الاجتماعي) فإنني أفتح كل نوافذ بيتي و لا أخاف من أقوى الرياح و أعتاها من اقتلاعي من جذوري.

بهذا المعنى الغاندي، تكون صناعة الجيل الذي يتعامل مع واقعه مهما بدا ثانيا بالنسبة للبعض، و لكن لا يستطيع التهرب من واقعه. وفي نفس الوقت يدخل في حوار حر ومسئول مع ما تزرعه العولمة الثقافية المعاصرة. ولا يخاف منها ولا يتهرب منها بل يعمل على مواجهتها والتعايش معها تعايشا واعيا بمزاياه ومخاطره، فهي تلك العولمة

الاقتصادية في الظاهر والثقافية الدينية في الباطن العاملة على أمركة العالم بعد أن سعت إلى غربلته (الغرب) من قبل.

انه الرهان الصعب، الذي تلعب فيه اللغة من حيث هي أداة مرنة ومطواعة للتواصل، فهي تساهم في تكوين إنسان جديد. وبهذا نكون أو لا نكون.

هي جملة من التساؤلات التي ارتأيتها مناسبة لفتح فضاءات أخرى للدراسات والبحوث العلمية مستقبلا.

قائمة المصادر والمراجع

1- تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية، والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، ص.37

2- خالد عبد الرزاق السيد، اللغة بين النظرية والتطبيق، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر، 2003، ص ص 32-33.

3- نفس المرجع، ص 36.

4- DABENE L., Repères sociolinguistiques pour l'enseignement des langues, HACHETTE, Paris, France, 1994, P 20.

5- Edward Sapir, selected waitings of Edward Sapir in language, culture and personality, ed. By david G. Mandelbaum, 1949, P 42.

6- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1979، ص 66.

wondershare™

- 7- حمادي سعدون، اللغة العربية و الوعي الوطني، مركز دراسات الوحدة العربية، 1984- ص.89
- 8- مصطفى الرافعي، وحي القلم، الجزء 3، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ، ص. 282
- 9- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ط3، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1957، ص.104
- 10- صفدي مطاع، التاريخ المختلف، الفكر العربي المعاصر، مركز الانماء الوطني، بيروت، دون تاريخ، ص 112.



wondershare™

197
PDF Editor